أهمية الأدب الشعبي

بلاغة في التعبير عن روح الشعب وتاريخه

سعد سعدي

ينظر عامة الناس إلى اللغة العامية وأدبها . إذا وجد، نظرة استخفاف وهزل . وهم يضفون على اللغة الرسمية وأدبها هالة من الهيبة والإكبار بل التقديس . إنهم يتصورون الفرق بين العامية والرسمية كالفرق بين الفلاح والعامل الكادح وكوخيهما من جهة والقاضي والحاكم والكاهن وقصورهم من جهة أخرى . القاضي والحاكم والكاهن هم المثقفون والقادة والسادة في الأمة . أما الفلاح والعامل (والمنبوذ أحيانا) فهم سواد الأمة الأسود و ((الأمي)) (هكذا ارتبطت الغالبية بالسواد وهكذا اكتسبت الأمية معنى الجهل في حين تقتصر دلالتها الأصلية . كما تؤكد الصلة الاشتقاقية . على محض الانتماء إلى الأمة) . إن نظرة عامة الشعب هذه تعكس عقدة اضطهاد الذات وغيرها من مركبات النقص في نفسية العامة تجاه الحاكم . يرجع سبب العقدة أو العقد في نفسية الشعب إلى استبداد الحاكم والقاضي والكاهن به منذ وجود هذا الثالوث على مسرح التاريخ . منذ بدء التاريخ المكتوب ابتكر الثالوث المذكور الحرف واحتكره . وعده هبة خصته به السماء ليحكم به ويتحكم .

ابتكر الكاهن واحتكر الملك، فخط القلم ما أملى عليه السيف . وكانت النتيجة أن ورث إنسان الحاضر إرثا كتابيا هو تاريخ الحاكم والكاهن فقط، وعلى الأدق، ما أراد الحاكم والكاهن معا أن يكون التاريخ . أما تاريخ الشعب، حياة الإنسان العادي المحكوم، فلا نعرف عنها شيئا من هذا الإرث الكتابي إلا بمقدار ما يعرف أحدنا عن اسم وجسم الجندي المجهول .

لقد كانت لسرقة اللغات الأوربية ((العامية)) نار الحرف من اللغة اللاتينية مولودا عظيما هو عصر النهضة الذي مازال يقطر دسما حضاريا ويقطر التقدم البشري حتى اليوم ويدخل به إلى القرن الواحد والعشرين حاملا كل يوم من منجزات العلم ومعجزاته ما كان البارحة يعد ضربا من الأحلام

وكان لقيام لوثر بترجمة الكتاب المقدس عن اليونانية إلى الألمانية ((العامية))، وكان لقيام جون ويكلف قبله (قرن ١٣) بترجمته إلى الإنكليزية، وكان لقيام دانتي بكتابة كوميدياه بالإيطالية ((العامية)) أثرا تقدميا هائلا على التاريخ الأوربي والعالمي . لو بقيت تلك اللغات الأوربية ممنوعة من الدخول إلى المطبعة فهل كان لأحدنا اليوم أن يسمع باسم شكسبير أو سرفانتيس أو غوته أو فيكتور هيجو ؟ كانت مجنحة بأجنحة طائر الفينوكس تلك الفكرة التي كسرت احتكار اللغة اللاتينية لحروف الكتابة، وجنحت اللغات الأوربية ((العامية)) بحروفها إنها بذلك كسرت احتكار الملك والكاهن للحرف، وحلقت به من ابتكار إلى ابتكار . بطباعة لغة الشعب نورت منطقه فتنور ونطق وحررت قلبه فخفق وأطلقت عبقريته فأنجز وأعجز وحلق . كانت ثمرة هذه الفكرة الثورية خيرا عميما على المجتمع عامة، الحاكم والمحكوم، الملك والكاهن والشعب . يمكن لأي شخص اليوم أن يلاحظ هذه الفكرة الثورية في بقاء اللغات الأوربية على مقربة من ألسنة ناطقيها وآذانهم وأفهاهم . ويعرف حتى من لا ينطق الإنكليزية مثلا أنها اليوم لغة أجنبية بالنسبة للغة أكبر شعرائها شكسبير .

ماذا يمكن لنا أن نستنتج مما تقدم للقول في مسألة الازدواجية اللغوية بين رسمية وعامية في اللغة العربية أو السريانية ؟ هل ما تقدم دعوة إلى إحلال العامية محل الرسمية ؟ الجواب بكلمة واحدة صغيرة لا لسببين : أولا : الفصحى لا تستطيع أن تقاوم العامية سوى باحتكار الورق، الكلمة المطبوعة . وثانيا : لأن الفصحى حاجة لتفاهم كتلة بشرية لهجاتها متقاربة وقريبة من الفصحى، وليست متباعدة كتباعد الأوربيات بعضها عن بعض وبعدها جميعا عن اللاتينية . إن العربية

الرسمية تفرض ذاتها في منصب لغة رسمية لكل العالم الناطق بالعاميات العربية سواء من أجل التفاهم أو التشاتم، من أجل التقارب كأصحاب وأحباب أو من أجل التنابذ والتنابز بالألقاب . والعربية الرسمية من قبل ومن بعد لغة كتاب أجبر المحتلين من مغول وعثمانيين على الدخول في دينه وتقديس لسانه ولو لم يفهموا منه حرفا واحدا . لا خوف إذا على العربية الرسمية من العاميات، مادامت تحمل في ذاتها عناصر القوة والبقاء التي ذكرنا . ولكن الخوف كل الخوف هو منها عندما تحتكر الورق والكلمة المطبوعة فلا تسمح للعاميات المحلية ولو بمنفذ صغير أو نافذة صغيرة . إن هذه السيطرة الكاملة على الكلمة المطبوعة، وقبل ذلك على الكلمة المخطوطة، أدى إلى خسارة ثروة لغوية وتاريخية وفولكلورية لا تعوض، وهي خسارة إنسانية بقدر ما هي وطنية . إن العربية الرسمية حفظت لغة الدين والدواوين الحكومية وتاريخ الحكام، ولكنها أهملت لغة الدنيا في البيت والحقل والعقل، وعدت نفسها لغة السلاطين بل لغة السماء ونظرت إلى لغة الشعب وكأنها لغة الرعاع والغوغاء ((الأميين)) . إذا كان من الممكن تبرير هذه الخسارة فيما مضى بعهود الاستعمار والظلام والانحطاط والجهل السائد سواد الأمة فما تبريره الآن وقد عم التعليم المجاني أو شبه المجاني ووسائله معظم العالم الناطق بالعربية ؟ وعلاوة على كل ما ذكر، أحدث الحاسوب ثورة في الاتصالات ستكسر قريبا جدا احتكار الفصحى للكلمة المطبوعة على الورق عندما يطبع الكتاب والمجلة وينشران في شبكة الانترنت من قبل كل من يريد وما يقال في أمر العربية ينطبق إلى حد بعيد على السريانية .

نعبد القول, ولعل في الإعادة إفادة : إن هذه ليست دعوة للعامية العربية أو السريانية . إنها على النقيض دعوة إلى مضاعفة الاهتمام باللغة الرسمية (العربية أو السريانية) أضعافا مضاعفة بتعميم تعليمها . إن هذا حسن جدا ومفيد جدا, ولكنه لا يتناقض بل يتكامل ويتناغم مع حفظ الفولكلور بالعيون التي بها تراه وتحفظه كل الأمم الراقية المتحضرة في العالم . وفتح نافذة ولو صغيرة لأدب الشعب في المطبوعات أسوة بالأرض التي تفتح صدرها لرقصاته وموجات الأثير لأغانيه يوجبها ويمليها حق الأحياء في الحياة والتنفس إننا بذلك نمكن الشعب من ممارسة حقه ونعطي الأجيال القادمة حقها في التعرف على حياة الشعب وتاريخه ومنطقه وهو ينطق بلغة فيها يخفق قلبه . وإذا كان الوعي اللغوي الذي سطع في أوربا منذ أواخر القرن الماضي قد حرك بعض الكتاب في الشرق للاهتمام بتدوين أدب العاميات ودراستها فإن الثمرة الحقيقية الوحيدة كانت موسوعة الأسدي لخير الدين الأسدي . وهو كتاب كنز فيه العامية الحلبية وحللها في ضوء السريانية مستعينا بالأب برصوم أيوب, رحم الله كليهما . اما لهجة ماردين وضواحيها فلا أحد اهتم بها على الإطلاق إذا استثنينا كتيبا جمع فيه اسحق أرملة بعض أمثال ماردين, والأب يوسف قوشقجي في كتابه ((الأمثال الشعبية الحلبية وأمثال ماردين)), ولحدو اسحق في كتابه ((أمثال من بازبدي (آزخ) : عرض – دراسة)) ولابد أن هناك الكثير من كتبوا وصنفوا ولكنهم لم يطبعوا وأكل العث ثمرات فكرهم وجهدهم . نقدم هنا قصة شعرية بالجزراوية ونلحقها بمقدمة لغوية وشرح وتحليل لبعض مفرداتها . إنها محاولة المقصود منها حفظ نموذج من هذه اللغة وشريحة من حياة ناطيقها للأجيال القادمة . وقصد آخر هو إبراز حقيقة يعرفها القاصي والداني وهي أن لهجة أي شعب هي الوسيلة الأفعل والكلمة الأبلغ والأفصح للتعبير عن نفسه وعالمه وزمانه ومكانه .

إذا كان لدى القارئ ذرة من ريب فيما تقدم فليحاول أن يترجم إلى العربية الفصحى هذه النماذج البشرية من عامة الشعب التي نقدما هنا تتكلم بلهجتها اللهجة الماردينية – الجزراوية, عن حياتها وذواتها, أكلاتها التي تحب والتي تكره, كفاحها في وجه الفقر من أجل تربية عشرة أولاد, روح التفاؤل والإقبال والإقدام رغم قسوة الطبيعة وبخلها طبيعة فهمها للسياسة, كما تعكسه شخصية سجنت أيام الوحدة (بين مصر وسوريا) بتهمة الانتماء إلى الشيوعية . إن محاولة ترجمة هذه الأصوات

إلى الفصحى محاولة ميتة في مهدها . فإن فيض لها بعض النجاح فلن تنقل من أنفاس الحياة في قلوب وأفواه أولئك الناس سوى النفس الأخير .

الشخصية المعروضة في هذه القصة تستحضر إلى المخيلة شخصية جان فالجان في بؤساء فيكتور هيجو, وشخصية البطل البطل الشعبي في غيرها من القصص والأفلام . كتلة من القوة والجرأة والإقدام والإقبال على الحياة . شعلة من الذكاء الحاد الذي لم يهيأ له أن يبدع ويتألق في مدرسة . تزداد قيمة الحياة حسب فلسفته بمقدار ما يستطيع أن يأكل من اللحم وما ينجب من الأولاد أن البنات . ولا يجد من سبيل إلى اللحم والإنجاب سوى أن يكون ((مسبع الكارات)) وصاحب ((بوكس)) . في النهار حمال شقال وبياع بندورة وبصل وخيار في سوق الخضرة بالمدينة من الصباح إلى الظهر . وما بقي من الخضرة عند الظهر يحمله ظهر شيء لا هو بعربة سوزوكي ولا بيكاب, لا هو من القرن التاسع عشر للميلاد ولا قبل الميلاد, ولا يوجد خبير في الدنيا يستطيع أن يحزر أو يخمن أصله وفصله . فإذا حمل عفارة الخضرة أضاف إليها ((الكجا)) أي اللباد وانطلق بمركبته ((الفضائية)) إلى قرى ((الشوايا)) طلبا للرزق . فإذا تمكن من بيع البضاعة عاد إلى المدينة ليلا . والعودة بمركبته سليمة كل مرة تسجل قصة أكثر إثارة من عودة أبولو ١٣ إلى الأرض من مدارها حول القمر . وأخيرا, ما إن يصل إلى البلد سالما من رحلته إلى القمر, ويتخلص من جاذبيته حتى يشعر بجاذبيته طاولة القمار, ولكنه يتذكر نذره بالتوبة عن القمار إن ربحه الله خمسين ألف وقدره بذلك على شراء بيكاب .

: دليل لغوي للنص

ضمير الغائب المتصل للمفرد المذكر يلفظ واوا مثل : فيه = فيو, عليه = عليو, له = لو, رقبته = رقبتو, ثمه = ثمو . + وهكذا ربعه, طبعه, بلعه, دمعه, كلمته, تشوفه, تدوفه, تحله .

ضمير الغائبة المتصل يلفظ ألف مد مثل : يديمها = يديما, لها = لا, شنترها = شنترا .... الخ +

الضمير المتصل لمطلق الجمع سواء للغائب أو المخاطب يتصل دائما بالنون مثل : كتابهن, كتابكن (للمذكر والمؤنث + على السواء) ويهمل لفظ هاء الغائبين أو الغائبات مثل : قالوا لهن = قالوا لن, كتابهن = كتابن (للمذكر والمؤنث) .

ضمائر الغيبة المنفصلة : هو, هي, هن (للجنسين) تنتهي بصوت إمالة +

يلفظ المقطع الأخير فقط من ضمائر الغيبة المنفصلة بعد السؤال مثل : من وي, من يي, من ني (الياء تلفظ إمالة) + ناحية في هذا نحو السريانية ܗܘ . ܗܝ, ܗܢ .

وكذلك يلفظ المقطع الأخير فقط عندما تقوم هذه الضمائر بوظيفة فعل الكون في الإنكليزية أو وظيفة التوكيد في العربية الفصحى, ناحية هنا أيضا نحو السريانية مثل :

الولد ذكي وي (بالفصحى : الولد ذكي هو) وبالسريانية : ܛܠܝܐ ܕܟܪܐ ܗܘ .

البنت ذكية يي (بالصحى : البنت ذكية) وبالسريانية : ܛܠܝܬܐ ܕܟܝܬܐ ܗܝ .

الأولاد أذكياء ني (بالفصحى : الولاد أذكياء هم) بالسريانية ܛܠܝܐ ܕܟܝܐ ܗܢ .

البنات أذكياء ني (بالفصحى : البنات ذكيات هن) بالسريانية ܛܠܝܬܐ ܕܟܝܬܐ ܗܢ .

(تختلف عن السريانية والعربية باستعمالها ضميرا واحدا لجمع المذكر والمؤنث) .

لا يختلف من ضمائر الخاطب عن الفصحى سوى ضمير الجمع أنتن الذي يستعمل للجنسين +

لا يختلف ضمير المتكلمين نحن عنه في العربية الفصحى سوى بانتهائه بإمالة عوض الضم +

+ تطابق التاء المتحركة نظيرتها في الفصحى في الضم للمتكلم والمتكلمة وكسرها للمخاطبة . وتطابق السريانية في تسكينها للمخاطب, مثل :

. أنا نجحت – أنت نجحت – أنت نجحت

+ . الألف في بنية جميع التكسير ممالة وشذ من ذلك بعضها كمثل : بخلا كبارية, أجاويد, صحاب الأعداد ثلاثة وخمسة وستة وثمانية ومائة ممالة الآخر, وكذلك الألف في لفظ واحد

+ نحرف مخرج بعض الحروف عن مخرجها في العربية الفصحى فتتحول إلى حرف مشابه في بعض المفردات دون الأخرى, مثل:

. رزيل من رذيل, ساح من صاح, ذحك أو دحك من ضحك, وعالبا الضاد وال ظ يلفظان ك ظ

+ تظهر قربا من لهجة الموصل.

+ يقصد باللهجة الماردينية لهجة ماردين وضواحيها والقرى القريبة منها . أما البعيدة منها كآزخ فتظهر تميزا ملحوظا يمكن معه تصنيفها بخانة مستقلة.